

نظرية ما بعد البنائية :

المناهج النقدية والتجريب

جون دبليو وايلي

ترجمة بتصرف

أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة

تُعدّ المناهج ما بعد البنائية ، قبل كل شيء ، مناهج نقدية . بمعنى أنها تُمكننا من تبني منظور نقدي ، يمكن من خلاله تقييم المؤسسات الاجتماعية القائمة ، والمعتقدات الثقافية ، والترتيبات السياسية ، على سبيل المثال . لكن ينبغي توخي الحذر عند طرح هذا الادعاء . ففي البداية ، يتميز الفكر والكتابة والممارسة ما بعد البنائية بالشكوك العميقة تجاه التصريحات البسيطة والتبسيطات المفرطة . يشك ما بعد البنائية بشدة في أي شيء يُقدم على أنه حقيقة بديهية ، أو شيء يُزعم أنه صحيح لأنه "بديهي" أو "طبيعي" أو قائم على "المنطق السليم". كفلسفة ومنهج بحث (ينظر الفصل 10)، يُظهر ما بعد البنائية أن جميع هذه الادعاءات نسبية ومؤقتة ، ومعرضة للنقد والمناقشة . ثانياً ، ينبغي توخي الحذر لأن ما بعد البنائية ، وإن كانت تُعدّ فلسفة نقدية ، إلا أنها تختلف تماماً عن أنواع الجغرافيا والاجتماع والتاريخ النقدية أو الراديكالية ، التي تركز في نهاية المطاف على الفلسفات الماركسية ، كما أوضحنا في الفصل 5.

تقدم ما بعد البنائية نهجاً أكثر راديكالية ونقدية ، لأنه لا يستند إلى تشخيص واحد لكيفية تنظيم العالم (مثل الماركسية) ، ولأنه لا يقدم بديلاً منهجياً (كما يُزعم عن الماركسية) . وقد عبّر ميشيل فوكو عن هذا الجانب من النهج ما بعد البنائية بقوله : "لا شيء أساسي . هذا ما يجعل تحليل المجتمع مثيراً للاهتمام" (رابينو، 1984: 247) . وبالتالي ، وبما أنه يستند ، كما يشير هذا الاقتباس ، إلى مبادئ التعددية والتعقيد ، فإن ما بعد البنائية تُلزمنا بالنقد المستمر . ونتيجة لطريقة تفكير الراديكالية التي تدفعنا إلى التشكيك باستمرار في افتراضاتنا الراسخة حول هويتنا وكيفية تنظيم العالم ، تدفعنا ما بعد البنائية إلى طرق بحث وكتابة مبتكرة وتجريبية . من الأمور التي انتقدها كتاب ما بعد البنائية بشدة ، هو الطريقة التي يتم بها إنتاج المعرفة الأكاديمية أو العلمية وتنظيمها ونشرها داخل المؤسسات التعليمية ، وخاصة الجامعات ، وفي الأنظمة التعليمية بشكل عام .

فما يتم إنتاجه ، وما يتوقعه الطلاب عادةً نتيجةً لنتشئتهم في هذه الأنظمة ، هو المعرفة المُبسطة : أفكار مُختصرة إلى جوهرها ، ونقاط رئيسية ، وقوائم بالأفكار الأساسية ، وتوضيحات واضحة للمشكلات ، واستنتاجات واضحة . إن فكرة أن الهدف الرئيسي للدراسة الأكاديمية هو تبسيط الواقع المعقد وإيضاحه ، راسخة جداً في الثقافة الغربية . ومع ذلك ، ينظر التيار ما بعد البنائي بتشكك شديد إلى هذه الفكرة ، وخاصة إلى الأنظمة التي تقوم عليها . فعلى سبيل المثال ، الكتب المدرسية المصممة لطلاب الجامعات . تتم تنظيم المعرفة عادةً وفق نظام يُقسم فيه مجال المعرفة (مثل الجغرافيا البشرية) إلى مناهج وموضوعات وأساليب متفرقة ، ثم يُرتب في أقسام مُنظمة (فصول) تُحدد فيها النقاط الرئيسية وتُختصر .

ومن منظور ما بعد البنيوية ، فإن هذا النوع من الإجراءات المُبسطة والمنهجية هو بالضبط ما يُعيق قدرتنا على التفكير النقدي والعميق . وهذا يعني ، بالطبع ، أن مهمتي في هذا الفصل هي في حد ذاتها ساخرة ومتناقضة وشائكة . ومع ذلك ، وكما هو الحال في فصول هذا الكتاب الأخرى ، فإن الهدف هنا ليس تقديم دليل عملي أو وصفة سحرية تُنتج بحثاً أو كتاباً "ما بعد بنيوي" . بل الهدف هو تسليط الضوء على مسارين

نظريين رئيسيين في الفلسفة ما بعد البنيوية - التحليل التفكيكي وتحليل الخطاب ، ومع تحديد بعض الموضوعات المهمة التي تناولها جغرافيون ما بعد بنيويون .

التحليل التفكيكي : ما هو؟

يرتبط هذا المصطلح ارتباطاً وثيقاً بأعمال الفيلسوف الفرنسي الجزائري جاك دريدا ، وكان يُستخدم في الأصل في الأوساط الأكاديمية والبحثية . أما الآن فقد أصبح شائعاً إلى حد ما ، ويمكن رؤيته في بعض مراجعات الكتب والأفلام والألبومات الموسيقية في الصحف . في هذه السياقات ، غالباً ما يعني "التحليل التفكيكي" ببساطة "التحليل" أو "التقصي" ، دون أي دلالات خاصة أو فنية ؛ على سبيل المثال ، "إذا حللنا ألبوم X تحليلاً تفكيكياً ، فسند أن تأثيراته هي ...". كما يُستخدم هذا المصطلح أحياناً لوصف أسلوب أو طابع كتاب أو فيلم أو ألبوم . ويُستخدم المصطلح بشكل خاص إذا كان يُنظر إلى العمل على أنه يمزج بين الأنواع أو ذو شكل فريد ، أو بشكل عام ، غامض أو معقد أو صعب الفهم . على سبيل المثال ، "هذا الفيلم يُعيد النظر في مفاهيمنا التقليدية عن رعاة البقر" ، أو "تدور أحداث هذا الكتاب حول إعادة النظر المقصودة في الأساليب السردية التقليدية".

هذه الاستخدامات الشائعة تقترب فقط من سطح المعاني والتأثيرات المحتملة لفكرة إعادة النظر. لكنها تُبرز أن إعادة النظر يمكن النظر إليها (وتطبيقها في المشاريع البحثية) بطريقتين متكاملتين . أولاً، بمعنى "التحليل" أو "الفحص الدقيق" ، تُعد إعادة النظر منهجاً خاصاً يمكن استخدامه لدراسة أي موضوع . وبشكل أدق، هي طريقة للقراءة والكتابة ، تستند إلى فهم أصيل لكيفية عمل اللغة ومعانيها وأفكارها . ثانياً، كونها سمة جوهرية للأشياء (الأشياء ، الأعمال الفنية ، أنظمة النقل ، إلخ)، ليست إعادة النظر مجرد منهج بحثي ، بل عملية تحدث في الواقع ، ويمكن ملاحظتها وتوثيقها . باختصار، إعادة النظر هي ما يحدث (رويل، 2003). أحد تفسيرات أعمال جاك دريدا (1976؛ 1978) هو أن إعادة النظر تحدث بالفعل في الواقع . إنها عملية (على الرغم من أن هذه الكلمة غير مناسبة تماماً) "ملازمة" للغة ، لطريقة تواصل البشر فيما بينهم ، وفكرهم عن أنفسهم والآخرين - بطريقة عمل العالم الثقافي والمادي بشكل عام .

لكن ينبغي توخي الحذر عند طرح هذه الادعاءات . لا تدّعي إعادة النظر بأنها مفتاح الوصول إلى الحقيقة المطلقة لكيفية "وجود الأشياء" . لأن هدفها هو تحدي ادعاءات الحقيقة واليقين والسلطة . لشرح ذلك ، يمكننا ، على غرار دريدا ، استخدام مفهوم "الأشباح" . معظم المناهج تعتمد على علم الوجود - مجموعة من المعتقدات والافتراضات حول ماهية الواقع ، وما يمكن عده حقيقة . بصورة بديهية ، يمكن وصف منهج التفكيك بأنه "علم الأشباح" (ديريدا، 1994؛ راي، 2003) . التفكيك عملية غامضة ، شبيهة بالأشباح . فمثل الروح ، هو حاضر بشكل دائم ، في حالة ظهور مستمرة ، ولكنه "لا يظهر أبداً كما هو" (ديريدا، 1994، ص 18) . هو موجود وغير موجود في الوقت نفسه . بهذه الطريقة ، وبمعنى ما ، فإن غاية التفكيك هي، بطريقة متطرفة ، إثارة الشكوك ، والتأثير على المفاهيم ، والنقاش حول مصطلحات الحقيقة . يزعم التفكيك مفاهيم الحقيقة والوضوح واليقين من خلال منطق غامض : فهو يميز بين الأمور، ويشير بالبلبل ، ويخلق حالة من عدم الاستقرار .

نظراً لأهمية العلاقة بين النظريات والأساليب ، سيتركز الجزء المتبقي من هذا القسم على التفكيك كمنهج للقراءة والتحليل والكتابة . بعد استعراض مبادئ منهج التفكيك - وهو جهد صعب نظراً للمساحة المتاحة - سأتطرق باختصار إلى بعض المجالات الرئيسية التي طبق فيها علماء الجغرافيا البشرية التحليل التفكيكي . يبدأ التفكيك من مبدأ أن اللغة نظام من الاختلافات . على سبيل المثال - كما فعل إيغلستون (1983)

الذي سأتبعه هنا - كلمة "قطة" باللغة الإنجليزية . الخطوة الأولى في منهج التفكير هي إدراك أن "قطة" هي "قطة" لأنها ليست "سجادة" أو "سيارة" أو "قطع" وهكذا . وبالمثل ، "سجادة" هي "سجادة" لأنها ليست "رجل" ، و"سيارة" هي "سيارة" لأنها ليست "بار" ، و"قطع" هي "قطع" لأنها ليست "لكن" ، وهكذا دواليك . بدلاً من أن تكون للكلمات معنى لأنها تمثل أشياء أو صور ذهنية (مثل حيوان صغير، ذو شعر، ذو أربعة أرجل) ، تكتسب الكلمات معناها من خلال كونها جزءاً من سلسلة لا نهائية من العلاقات التفاضلية . وهذا ، والأهم من ذلك ، ليس مجرد خاصية لغوية تهتم الباحثين الأكاديميين فقط . إنه عملية تحدث في الواقع .

أهم نتيجة لهذا المفهوم هي أن معنى الشيء يتحدد بما ليس فيه . فالمعنى لا يكمن في الكلمة أو الشيء أو العملية ، فهو ليس جوهرًا متأصلاً فيه أو خاصية فريدة له . بل إن معنى الشيء يتحدد بما ليس فيه . وبعبارة أخرى ، فإن وجود الشيء وكيانه وهويته وشرعيته ، يتحددون بما يفتقر إليه أو بما يستبعد منه . فمثلاً ، دعونا نأخذ مفهومي الذكورة والإناث . قد يبدو أن مفهومي "الذكر" و"أنثى" يشيران إلى صفات ثابتة لا تتغير . ونحن نميل إلى الاعتقاد بوجود خصائص وسمات وتوجهات "ذكورية" و"أنثوية" فريدة في البشر والحيوانات والأشياء . إلا تطبيق منهج التحليل النقدي يكشف أن مفهومي الذكورة والإناث يمكن عدهما متساويين ، أي " مجموعة من غير أنثوي أن / أنثوي " .

بمعنى آخر ، فإن معنى كلمة "ذكر" يُحدد ويُبنى من خلال معنى كلمة "أنثى" . فتعريف الصفات "أنثوية" يُحدد بالتعارض مع الصفات "الذكورية" . وبالمثل ، فإن تعريف ما يُعد "رجلاً" في مكان وزمان معينين ، يتم عبر استبعاد كل ما يُعد صفات "أنثوية" . ولكن في عملية التحليل النقدي التي لا تتوقف ، فإن أثر "الأنوثة" يعود باستمرار ليؤثر على تعريف "الذكورة" من الداخل . لذلك ، فإن معنيي "الذكر" و"أنثى" غير ثابتين أبداً . فهما لا يكتسبان معنى أو وجود أو شرعية بذاتهما . إن مصطلحي "الذكورة" و"الأنوثة" لا يوصفان إلا مجالاً ديناميكياً ومتغيراً للمعنى . وتتميز ثقافتنا بالكثير من المفاهيم الثنائية مثل : ذكر / أنثى ، عقل / جسد ، أنا / أنت ، نحن / هم ، طبيعي / اصطناعي ، غرب / شرق ، إلخ . إن تأثير هذه المفاهيم الثنائية على أساليب تفكيرنا وعلاقاتنا فيما بيننا ، وعلى طبيعة عمل المجتمع والسياسة بشكل عام ، لا يمكن قياسه . ما تكشفه التحليلات التفكيرية ليس أن هذه المفاهيم الثنائية غير حقيقية ، بل إنها ليست أبداً مفهومة بشكل كامل أو متسق : فالجانبيان المتناظران لا يتشكلان بشكل منفصل ، بل هما متداخلان بشكل وثيق . ويصف دريدا هذه المفاهيم الثنائية بأنها هياكل هرمية قمعية .

لأن من المعتاد أن يفهم أحد المصطلحين على أنه أعلى مرتبة من الآخر ، أو أنه الأصل أو المعيار . مثال ذلك : المثلية الجنسية / الاستقامة الجنسية . في هذه الحالة ، يعد مفهوم "الاستقامة الجنسية" في العديد من المجتمعات ، قديماً وحديثاً ، أساسياً وطبيعياً ؛ وهذا يجعل من "المثلية الجنسية" حالة ثانوية ومخالفة للمعايير . ومع ذلك ، بمجرد فهمنا لمفهوم "التفكير" ، ندرك أن المثلية الجنسية ليست انحرافاً أو مخالفة للمعايير ، بل هي في جوهر معنى الاستقامة الجنسية . أتمنى أن يكون القارئ قد استوعب الإمكانيات النقدية للتفكير من خلال ما كتبه حتى الآن . المسألة هي أن أنواع التمييز الثنائي هذه مرتبطة بالعنف ، سواء كان حقيقياً أو رمزياً ؛ ويمكن ملاحظة تأثيرها في أوجه عدم المساواة والظلم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي على جميع المستويات ؛ وهي راسخة في المعتقدات والافتراضات ، سواء على المستوى الشعبي أو الفكري .

هناك أمثلة عديدة في عصرنا : ما يُسمى "صراع الحضارات" بين الغرب والإسلام ، واللاجئون "الحقيقيون" و"المزيفون" ، والمواد الغذائية "البيولوجية" مقابل المعدلة وراثياً ، والعولمة ومعاداة العولمة . هذه أمثلة واضحة وبسيطة . لكن التفكير هو منهج نقدي لأنه يمكن تطبيقه على جميع محاولات فرض السيطرة ، والتمركز ، والتنقية ، والتصنيف ، والاستبعاد . فهو يكشف عن هشاشة هذه المحاولات ، وعن التكبر ، بل وعدم جدواها . وبالرغم من عدم وجود أجندة سياسية صريحة هنا ، فإن التفكير يقودنا إلى فهم الأبعاد المختلفة

لتأثيرات ونواتج أفكارنا حول الوجود والغياب ، والهوية والفرق . وأخيراً ، من المهم التأكيد على أن مصطلح "التفكيك" يشير إلى طريقة تحليل ، أي منهج ، وإلى عملية فعلية ، ما يحدث في النصوص الأكاديمية ، واللوحات ، والموسيقى ، والمحادثات ، والسياسات الحكومية ، والتقارير العلمية ، إلخ. التفكيك لا يعني أبداً استنتاج معاني "غير موجودة" في هذه الأشياء ، أو تفسير موقف بشكل تعسفي . ينشأ هذا الفهم الخاطئ لأن نظرية التفكيك غالباً ما تتجاهل أو تتخطى المعنى "الواضح" للأشياء ، أو ما يبدو أن "المنطق السليم" يفسره لنا .

في الواقع ، تتلخص نظرية التفكيك في قراءة النصوص والأحداث والظروف والعمليات بدقة متناهية ، سعياً إلى تمثيلها بدقة متناهية . هدفها هو الدقة القصوى . في الوقت نفسه ، من عبثي الادعاء بأن كتابة التفكيك ، كما في كتابات دريدا ، ليست معقدة وصعبة ، أو أنها لا تبدو وكأنها تشوه النصوص بطرق مثيرة للدهشة ، بل وغير منطقية . يلخص رويل (2003: 21) هذا التناقض الظاهري ، وهو تمثيل شيء بدقة وتغييره بشكل جذري ، بقوله إن التفكيك "يصف ويحول" . ويضيف : "في جوهره ، لا يفعل دريدا أكثر من وصف ما يحدث عند قراءة مقطع من شكسبير أو حوار من أفلاطون" (2003: 26) . لكن المهم هو أنه ، بما أن التفكيك هو ما يحدث ، فإن هذا الوصف لا بد أن يكون تحولاً أيضاً . لكي تكون عملية التفكيك صادقة مع العالم ، يجب أن تعكس طبيعة العالم المتغيرة والمتعددة الأبعاد. أمثلة على تطبيق هذا التحليل كثيرة في الجغرافيا البشرية ، كما في العلوم الاجتماعية والإنسانية .

مع مرور الوقت ، أصبحت مبادئ فلسفة دريدا شائعة ، ويُستخدم لغة التفكيك الآن بكثرة في أبحاث الجغرافيا البشرية . من الجدير بالذكر أن التفكيك يرتبط عادةً بمجموعة من المصطلحات التي أصبحت قديمة ؛ مثل "الانعطاف الثقافية" ، والبعديّة ، وسياسة الهوية ، و"احتفاء بالفرق" . ومع ذلك ، فإن معظم هذه المصطلحات أصبحت قديمة . مع مرور الوقت ، استمر تأثير نظرية التفكيك ، حيث أصبحت عمق ودقة تحليلات دريدا أكثر وضوحاً للباحثين الأكاديميين الناطقين بالإنجليزية . بل إن من الممكن (وبشكل منطقي) القول إن نظرية التفكيك لم تكتمل بعد في علم الجغرافيا الإنسانية ، وأن تعقيدات وإمكانيات هذه النظرية ما زالت قيد الدراسة والبحث (ينظر على سبيل المثال: روز، 2004).

إلى جانب الشعارات المذكورة أعلاه ، دخلت نظرية التفكيك مجال علم الجغرافيا الإنسانية في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات . في البداية ، ركز الاهتمام على آثارها على الكتابة والممارسة الجغرافية ، مع إيلاء اهتمام خاص لقضايا المعرفة واللغة في الجغرافيا (دويل، 1992؛ أولسون، 1991؛ بارنز، 1994) . بشكل أوسع ، تم دمج التحليلات التفكيكية مع التحليلات النسوية والتقدمية حول بناء الهويات الجنسانية والاجتماعية (لأمثلة مبكرة، ينظر دوموش، 1991؛ مكدول، 1991) . هذا مشروع واسع النطاق ما يزال مستمراً ؛ ولن نتطرق إليه بالتفصيل في هذا الفصل (ينظر الفصل 10)، ولكن من الجدير بالذكر أن العديد من الأبحاث الحديثة حول النوع الاجتماعي والهوية والأداء (ينظر على سبيل المثال: بيل وفالننتين، 1995؛ جريغسون ورويز، 2000) استلهمت من أعمال جوديث باتلر (1990؛ 1993)، والتي بدورها تعتمد إلى حد كبير على أعمال دريدا.

ومع ذلك ، مع انتشار منهج ما بعد البنيوي ، أو بدقة أكثر ، المنهج البنائي ، الذي يركز على التحليل النقدي للمعرفة والهويات الجغرافية ، خلال التسعينيات ، انتشرت استراتيجيات التفكيك على نطاق واسع في مختلف فروع علم الجغرافيا . من المهم ملاحظة أن هذا لم يقتصر على تطبيق منهج "جديد" على مواضيع تقليدية ، بل شمل أيضاً ، في معظم الحالات ، تطوير مجالات دراسية جديدة . من المهم أيضاً أن ندرك أنه في كثير من الحالات ، فإن رؤية التحليل التفكيكي تؤثر في الدراسة والتفسير بشكل ضمني أكثر من صريح

؛ فقد غدت هذه الطريقة جزءاً لا يتجزأ من التحليل النقدي . في علم الجغرافيا السياسية على سبيل المثال ، ساهمت نظرية التفكير في إلهام وتطوير شكل جديد من الجغرافيا السياسية النقدية . وقد ركز هذا الاتجاه بشكل أساسي على دراسة المفاهيم الجغرافية السياسية على مختلف المستويات ، بدءاً من تطور سياسات الدول واستراتيجياتها الخارجية (مثل أوتواثل، 2000؛ دالبي، 1991) وصولاً إلى تناول القضايا السياسية والعسكرية العالمية في الأخبار (أوتواثل، 1996) والإعلام المطبوع (شارب، 1993؛ دودز، 1996).

ربما تكون استراتيجيات التفكير مناسبة بشكل خاص للتحليل النقدي في مجالات التفكير والترويج الجغرافيين ، نظراً لأنها غالباً ما تقدم صورة مقسمة ومتحيزة للمصالح والعلاقات العالمية . مع هذا التحول الواسع نحو مناقشة بناء وتطبيق المعارف الجغرافية في مختلف الأزمان والمناطق ، شهدت الجغرافيا التاريخية ثورة مع ظهور الأساليب ما بعد البنائية . وقد أدت التحليلات والنقد التي فتحتها نهج التفكير في مجال إنتاج المعرفة إلى إعادة النظر في تاريخ الجغرافيا ، كونها تقليداً فكرياً متأثراً بشكل كبير بالاستعمار والإمبراطورية من خلال ممارسات رسم الخرائط والمسح والاستكشاف . على سبيل المثال ، في دراسة كلاسيكية حول "تفكير الخريطة"، يوضح هارلي (1989) كيف يسهم التحليل الديريدي في الكشف عن ادعاءات الموضوعية والشفافية في رسم الخرائط ، من خلال إبراز العناصر البلاغية والرمزية التي تشكل جوهر معنى أي خريطة. قدم كل من برات (1992) وبارنيت (1998) ورايان (1996) ، إلى جانب آخرين ، قراءات نقدية معمقة في كتابات المستكشفين الأوروبيين في القرن التاسع عشر في أمريكا الجنوبية وأفريقيا وأستراليا ، موضحين أن "إسكات" أصوات السكان الأصليين في هذه النصوص كان عنصراً أساسياً في عملية تعزيز سلطة الأوروبيين وتمركزهم . المعارف الجغرافية ، التي تجسدها شخصية المستكشف . وبالمثل ، يستخدم كل من بلانت (1994) وكلايتون (2000) مزيجاً من البحث في الأرشيف والتحليل النقدي ، لدراسة رحلات ماري كينغسلي في أفريقيا في القرن التاسع عشر ، ورحلات كوك وفانكوفر في المحيط الهادئ في القرن الثامن عشر ، على التوالي ، موضحين في كلتا الحالتين التناقضات والغموض في جوهر الرحلات الاستعمارية ، التي سعت ، على النقيض من ذلك ، إلى النقاء والهوية واليقين .

في ظل تأثير جيل من النظريين ما بعد الاستعمارية الذين استلهموا فكر دريدا (سيفاك، 1988؛ باها، 1994) ، وفي منطقة التقاطع بين الجغرافيا التاريخية للإمبراطورية والاستكشاف والجغرافيا المعاصرة للدول النامية ، ظهرت "الجغرافيا ما بعد الاستعمارية" (سيدواي، 2000؛ كرش، 1995؛ بلانت وماك إيوان، 2002) كتحليلات نقدية للغة والنصوص والسكوت في العلاقات الاستعمارية في الماضي والحاضر . وكما تكشف هذه النقاط الموجزة ، أصبحت استراتيجيات التحليل النقدي جزءاً لا يتجزأ من لغة الجغرافيا البشرية ، ويمكنني التوسع في مناقشة استخدام التحليل النقدي في الجغرافيا الاجتماعية والثقافية وغيرها . ولكن في الختام ، أريد التأكيد على أن آثار التحليل النقدي على ممارسة علم الجغرافيا جذرية . التحليل النقدي ليس مجرد طريقة "مفيدة" ؛ بل يطالب باستمرار بتشكيك الافتراضات والإجراءات المعتادة ، ويشمل ، قبل كل شيء ، إعادة النظر في كيفية كتابة الباحثين في الجغرافيا . إن عمل ماركوس دول (1992؛ 1994؛ 1999) مثال رائع في إصراره على استكشاف إمكانات التحليل النقدي في هذا الصدد - ولكن قليلون فقط قد استجابوا لهذا التحدي حتى الآن.

تحليل الخطاب

تماماً كما هو الحال مع نظرية التفكير ، فإن مصطلح "الخطاب" يحتاج إلى تعريف دقيق . يركز هذا القسم على تحليل الخطاب كمنهج ما بعد بنوي ، وهو مرتبط بشكل خاص بأعمال المؤرخ والفيلسوف الفرنسي

ميشيل فوكو . كما هو الحال مع ديريدا ، زميله في الفترة نفسها تقريباً ومرتاده السابق ، كان لعمل فوكو ، الذي تناول مواضيع متنوعة مثل علم المعرفة ، والجنون ، والعقاب ، والسلطة ، وتاريخي العلم والجنس ، تأثير كبير في العلوم الاجتماعية والإنسانية . فقد ألهم ليس فقط مناهج بحث جديدة ، بل مجالات دراسية جديدة . في الواقع ، غالباً ما يُذكر عمل ديريدا وفوكو معاً ، على الأقل من الناحية الشكلية ، في العديد من الكتب والمقالات التي تسعى إلى "تفكيك الخطابات" المتعلقة بالعرق ، والجنس ، والجنسية ، والدولة ، والطبيعة ، والمظاهر الطبيعية ، وما إلى ذلك.

إن فهم فوكو لمصطلح "الخطاب" ، وهو جوهر دراساته المختلفة ، أكثر تعقيداً ومتعدد الأوجه من التعريف اللغوي : "اسم . 1. حوار . 2. (يتبع ب) يتحدث أو يكتب بشيء ما بالتفصيل" (قاموس كولنيز الإنجليزي، 1996). بالنسبة لفوكو ، يشير الخطاب ، مع الاحتفاظ بمعاني الحوار والكلام ، إلى مجموع الأقوال والأفعال والأحداث التي تشكل مجالاً أو موضوعاً معيناً . وللتوضيح ، يمكننا النظر في تعريفين للخطاب من قبل علماء الجغرافيا .

يقول جريجوري إن الخطاب "يشير إلى جميع طرق التواصل بيننا ، تلك الشبكة الواسعة من الرموز والأنماط والسلوكيات التي تُعطي من خلالها معنى للعالم" (1994: 11) . يشير هذا التعريف إلى أمران . أولاً ، الخطاب ليس مجرد مجموعة من النصوص المكتوبة . يشمل الخطاب النصوص ، والخطابات ، والحوارات ، وأساليب التفكير ، والأفعال ؛ السلوكيات ، والعادات ، والإيماءات ، وما إلى ذلك . ثانياً ، الخطاب ليس مجرد مجموعة من الأقوال والأفعال المتعلقة بشيء ما موجود مسبقاً - مثل الجنس . إن الخطاب المتعلق بالجنس ليس مجرد حديث عن الجنس ، بل إنه يخلق مفهوم الجنس ويجعله حقيقة قائمة ، كونه مجموعة من المعتقدات والسلوكيات والممارسات اليومية ذات الأهمية والمدلولات العملية .

بالإضافة إلى ذلك ، كما يقول بارنز... ويشير دانكان إلى أن "الأفكار والنظريات لها تأثيران : تمكين وتضييق... فهي تحدد نطاق الأسئلة التي يُعد طرحها مناسباً أو حتى مفهوماً" (1992: 8) . باختصار ، تحدد أي نظرية أو فكر ما يُمكن قوله أو فعله وما لا يُمكن ، وما يبدو صحيحاً أو مشروعاً أو ذي معنى ، وما يُرفض كونه خاطئاً أو منحرفاً أو لا معنى له . على سبيل المثال ، ففي نظرية النوع الاجتماعي ، تُمكن هذه النظرية بعض أساليب التفكير والسلوك "الذكورية" و"الإنثائية" ، بينما تمنع أو تقيد أخرى . وبهذا ، يتضح الأثر السياسي والأخلاقي للنظرية : فهي تجعل بعض السلوكيات والهويات طبيعية وعادية ، بينما تجعل أخرى غير طبيعية أو هامشية . لذا ، يجب النظر إلى الأفكار والنظريات من منظور السلطة .

لفهم فكر فوكو وأسلوبه ، من الضروري فهم نظريته المبتكرة حول كيفية عمل السلطة . فالسائد هو أن السلطة تعمل من أعلى إلى أسفل ؛ أي أن بعض الأفراد أو المنظمات أو الدول "يمتلكون" السلطة ، ويستخدمونها للتأثير على الآخرين والسيطرة عليهم . في هذا المفهوم ، (1) تتمركز السلطة في أيدي الأقلية ، (2) وتُمارس على الحياة بدلاً من أن تكون جزءاً منها ، (3) وتكون آثارها سلبية وليست إيجابية - تُستخدم السلطة للقيود والمنع والاحتجاز ، إلخ . لكن فوكو لا يتفق مع هذا الرأي ، فهو يرى أنه "يجب أن نتوقف عن وصف آثار السلطة بشكل سلبي... في الواقع ، السلطة تُنتج ؛ إنها تُنتج الواقع" (1977: 155).

باختصار ، السلطة هي ما يخلق هويات ونظم اجتماعية واقتصادية وسياسية جديدة ، وليس ما يمنع التغيير أو "التقدم" . إضافة إلى ذلك ، تعمل هذه السلطة الإبداعية بطريقة متنوعة ومتعددة المصادر ؛ فهي لا تتبع من مصدر واحد . كما يقول فوكو : "السلطة موجودة في كل مكان ، ليس لأنها تشمل كل شيء ، بل لأنها تأتي من كل مكان" (1981: 93). إن المواقع التي تُمارس فيها السلطة ، والمواقع التي تُشعر فيها بتأثيراتها ، وتُمارس فيها وتُنقل وتُحوّل ، هي مواقع متعددة ومتنوعة . تتضح نقطتان جوهريتان بشأن استخدام تحليل

الخطاب كمنهج نقدي من هذا النقاش حول السلطة والخطاب . الأولى هي أن فوكو لا يسعى بالتأكيد إلى إنكار وجود عدم المساواة والظلم والقمع في مجتمعاتنا . بل إنه يحاول ، من خلال فهمه لكيفية عمل السلطة ، تطوير طريقة أكثر تميزاً ودقة لتحليل كيفية ظهور هذه أوجه عدم المساواة . مثال النوع الاجتماعي توضيحي في هذا الصدد . يرى فوكو أن بعض أساليب السلوك التي يُنظر إليها كأمر طبيعي ومناسب في مجتمعنا ، سواء بالنسبة للرجال أو النساء ، لا تُفرض علينا من قبل سلطة مركزية غامضة ، بل لأننا نمارس السلطة على أنفسنا ، من خلال ضبط أنفسنا ومراقبتها باستمرار . إن معايير النوع الاجتماعي تُحافظ عليها مجموعة من الممارسات الصغيرة واليومية والمتنوعة . فالخطاب هو ممارسة يومية ، وليس شبكة خفية من الأفكار القوية التي تُفرض علينا من الأعلى .

أما النقطة الجوهرية الثانية - وهي نتيجة جذرية للنقطة الأولى - فهي أننا نعدّ نتاج الخطاب . فالخطابات المختلفة (مثل الذكورة ، أو الأيرلندية ، أو الأبوة) ليست طبقات معاني خارجية تحيط بكيان داخلي فريد . بل إن فكرة أن كل شخص فريد ، وأننا أفراد ذوو أفكار ومشاعر واتجاهات داخلية ، هي في رأي فوكو اختراع حديث نسبياً . ويشير إلى أن المجتمعات الحديثة تتميز بعمليات تُحدد فيها هوية الأفراد ، سواء كأهداف للدراسة في العلوم الإنسانية مثل الجغرافيا البشرية ، أو ككيانات ذاتية يتم تجربتها وتربيتها . باختصار ، المعارف والفئات التي نستخدمها لفهم أنفسنا والآخرين هي معارف وفئات محددة ثقافياً وتاريخياً .

ولعل أهم إنجاز لفوكو هو إظهار أن الفئات التي يُفترض أنها عالمية أو طبيعية أو قابلة للتعريف الموضوعي - مثل فئات النوع الاجتماعي - ليست كذلك . إن مفاهيم مثل "الصحة / المرض" ، "العقلانية / الجنون" ، "الاعتيادية / الشاذة" هي في الواقع نتاج ممارسات خطابية محددة ؛ فهي ، كما يقال ، "مبنية اجتماعياً" . هذا لا يعني أنها خاطئة أو غير حقيقية . لقد أصبحت هذه المفاهيم حقيقية وذات معنى ضمن سياقات ثقافية وتاريخية محددة . يأمل هذا النقاش في تسليط الضوء على الإمكانيات النقدية لمفهوم فوكو للخطاب والسلطة . كما يأمل في إبراز أوجه التشابه بين التحليل الفوكوي والتحليل التفكيكي لدير .

التحليل الخطابي هو منهج نقدي يسعى لوصف كيفية إنتاج بعض الهويات والخطابات ، وتفضيلها ، بل وتوظيفها أحياناً كأمر بديهية ، وفرضها على الهويات والخطابات الأخرى التي يتم تجاهلها أو استبعادها أو إسكاتها . يسعى التحليل الخطابي لوصف تفاصيل كيفية ترسخ بعض السلوكيات والمواقف والمعتقدات وتكرارها عبر الزمن ، مع التركيز على الأحداث والوقائع والممارسات . كما هو الحال مع نظرية التفكيك ، فقد أثر منهج فوكو في العديد من الأبحاث الجغرافية خلال السنوات الـ 15 الماضية ، وسأشير هنا باختصار إلى بعض الاتجاهات الرئيسية التي سُلكت .

لقد ألهم اهتمام فوكو بممارسات المراقبة والعقاب والاحتجاز إلى حد ما أبحاثاً بحثية جديدة في الجغرافيا البشرية . على سبيل المثال ، استناداً إلى مؤلفات كلاسيكية مثل "الجنون والحضارة" و"التأديب والعقاب" ، ظهرت دراسات جغرافية جديدة حول دورات الرعاية والمؤسسات العقابية (مثل دريفير ، 1985؛ 1993؛ فيلو ، 1995؛ فيلو وباري ، 1995) . كما أن تحليلات فوكو الشهيرة للنظرة البصرية التي تعزل وتصنف وتحدد ماهية ما تنظر إليه ، كانت مثمرة للغاية في الجغرافيا البشرية . لقد ألهم هذا الفكر ، على سبيل المثال ، الدراسات المتعلقة بالإشراف والترصد باستخدام كاميرات المراقبة في المناطق الحضرية (ديفيس ، 1990) .

وفي سياق الجغرافيا الثقافية للفن والطبيعة والبصر ، أثر مفهوم فوكو للنظر بشكل أكبر على الكتابات حول المظاهر الطبيعية ، والتحرش الجنسي ، واستغلال المرأة كـ "الطبيعية" (على سبيل المثال: روز ، 1993؛ بلومود ، 1993؛ ناش ، 1996؛ بولوك ، 1988) . وكان تأثير "المنهج اللغوي" واضحاً أيضاً في الجغرافيا

الطبية ، حيث أدى إلى تحول جزئي على الأقل من التركيز شبه الحصري على تعداد ورسم خرائط الأمراض في المجتمعات ، إلى منهج يبحث في الطرق المتعددة التي تشكل بها قضايا الصحة والمرض ، من خلال الخطاب ، الأجساد والهويات (على سبيل المثال: كيرنز، 1993؛ دورن ولوز، 1994؛ باتلر وبار، 1999) . وبشكل أكثر تحديداً ، يمكن الإشارة هنا إلى الدراسات حول جغرافيا الإعاقة (على سبيل المثال: تشوينارد، 1997) ، التي لا تتجاهل قضايا الوصول والتنقل ، بل تبحث في دقة التعريف الذاتي وكيفية تصنيف الإعاقة وتطبيقها .

ويتعلق هذا أيضاً بجغرافيا الأمراض النفسية ، حيث يتم استكشاف الأبعاد المؤسسية والعلاجية والسياسية التي يتم من خلالها إنتاج وتطبيق مفهوم "المريض النفسي" (على سبيل المثال: بار، 1999). كما هو الحال مع دريدا ، فإن المنهجية الخطابية لفوكو ، التي تؤكد بوضوح على المعرفة والسلطة والعلاقة بين النظرية والتطبيق ، وخاصة توجهها التاريخي والتوثيقي ، كانت مؤثرة بشكل كبير في علم الجغرافيا الثقافية والتاريخية . ويعد كتاب "الاستشراق" لسعيد (1978) مثلاً بارزاً على ذلك ، إذ أنه (على الرغم من أن سعيد لم يكن جغرافياً) وضع أسساً لدراسات "التخيلات الجغرافية" ، ولا سيما تلك المرتبطة بالاستعمار والإمبريالية ، وتمثيل "الأخر" غير الأوروبي من قبل "الذات" الأوروبية (ركز سعيد بشكل خاص على المكانة التاريخية للشرق الأدنى والشرق الأوسط في التخييل الغربي). وقد واصل العديد من علماء الجغرافيا دراسة منهج فوكو كباحث تاريخي نقدي للفكر والممارسة الغربية ، وخاصة من خلال دراسة الأساليب الخطابية . في مجال الاستكشاف (درايفير، 2001)، والسفر (دانكان و غريغوري، 1999)، والجغرافيا كتقليد فكري (غريغوري، 1994).

يمكنني الاستمرار في سرد دور تحليل الخطاب في تشكيل ودعم مجموعة متنوعة من الدراسات التي أجراها علماء الجغرافيا الثقافية ، على سبيل المثال دراسة استهلاك الأطعمة "الغريبة" (ماي، 1996)، أو تمثيل الذكورة في المجالات الشبابية المعاصرة (جاكسون وآخرون، 1999) . ومع ذلك ، في ختام هذا القسم ، أود أن أشير إلى أنه على الرغم من شيوع مصطلح "الخطاب" مثل مصطلح "التفكيك" ، إلا أن هذا المفهوم ربما تم فهمه على نطاق واسع على أنه يشبه "الهيكل" . من المهم التأكيد على أن الخطاب ليس بنية من الأفكار "القوية" أو المؤثرة التي تسود الفرد وتسيطر عليه ؛ كما أنه لا يشبه لوحة الشطرنج ذات الهويات والصفات المحددة مسبقاً التي يُجبر الأفراد على الاختيار بينها . يتكون الخطاب من مجموعة متنوعة من الممارسات والأفعال اليومية المتكررة ، والتي قد تكون عادية ، سواء كانت نصية أو خيالية أو فعلية ، والتي تشكل نسيج الحياة .

مثال جيد على هذا النهج في الجغرافيا ، والذي يعتمد بشكل خاص على مفهوم فوكو ، هو كتاب ديفيد ماتليس "المظاهر الطبيعية والروح الإنجليزية" (1998) ، الذي يوضح كيف ، في منتصف القرن العشرين في إنجلترا ، تداخلت مفاهيم المواطنة وسياسات التخطيط الإقليمي والتوجهات البيئية الناشئة مع تطور أنماط الحياة في الضواحي وانتشار الأنشطة الترفيهية في الريف ، مما أنتج تعبيرات خطابية معقدة للعلاقات بين الذات والمجتمع والمظاهر الطبيعية .

الخلاصة

التجريب ، اختتمت كلا القسمين الرئيسيين لهذا الفصل ببعض الانتقادات البسيطة لطريقة تبني علماء الجغرافيا البشرية لنهج ديرا وفوكو في الدراسات ما بعد البنائية . أشعر في كلا الحالتين أن علماء الجغرافيا (مع معظم علماء الاجتماع الناطقين بالإنجليزية) قد تبنوا بسرعة كبيرة مفاهيم ما بعد البنائية . نتيجة لذلك ،

تم دمج الفلسفة ما بعد البنائية مع المفاهيم السائدة السابقة ، والمبنية على البراغماتية والواقعية ، في فهم بعض المفاهيم مثل السلطة واللغة والهوية والمعنى . وبمعنى أدق ، فإنها تنطوي على رفض لهذه المفاهيم السائدة والسعي نحو شيء جديد تماماً . إن التساؤل الجذري والتحليل النقدي الذي تنطوي عليه مناهج ما بعد البنائية لم يكن لهما تأثير كبير ، على سبيل المثال ، على كيفية كتابة الأوراق البحثية والكتب الأكاديمية ؛ إذ ما تزال هذه الأوراق والكتب تعد في الغالب إضافة بسيطة للمعرفة القائمة ، وتعليقاً على العالم الخارجي الموضوعي (ينظر لاو وبنشوب، 1997). أي أن الأمور لم تتغير .

في هذا الفصل الموجز، اخترت التركيز على التحليل البنوي ونقد الخطاب ، وبالتالي على دريداً وفوكو، لأنهما كانا من أكثر الكتاب تأثيراً في علم الجغرافيا البشرية خلال السنوات الخمس عشرة الماضية . هذا يعني استبعاد بعض الأسماء البارزة في الفلسفة ما بعد البنائية ، مثل جولي كريستيفا وجان فرانسوا ليوتار وجان بودريار . كما يعني استبعاد اسم آخر ، وهو جيل دولوز، الذي غالباً ما يُذكر في سياق الحديث عن فوكو وديريدا ، والذي قد يكون له تأثير كبير في المستقبل . أريد أن أنهى هذا الفصل ببعض التعليقات حول دولوز والاتجاهات الجديدة في علم الجغرافيا البشرية .

ذكرت في البداية أن الآثار الجذرية والمقلقة للفلسفة ما بعد البنائية تطرح أسئلة حول الفكر والممارسة الأكاديمية ، وتؤكد على ضرورة اتباع أساليب تجريبية وإبداعية في الكتابة الأكاديمية وأساليب التعبير بشكل عام . وهذا جوهر فكر دولوز . تؤكد فلسفة دولوز على... الإبداع والحيوية والتحول ، ليس كقيم قيمة فحسب ، بل كسمات جوهرية ومتأصلة في الحياة عموماً . ورغم أن ديولوز يتميز بنهجه ما بعد البنوي في رفضه النظريات الشاملة والبحث عن مفتاح تفسيري واحد لكشف أسرار الحياة (مثل الاعتماد على الدين ، أو "البنى الاجتماعية" ، أو الأسواق الحرة ، أو الذات ، أو النفس) ، إلا أن موقفه ، بخلاف موقف ديرو أو فوكو، لا يقتصر على النقد الدقيق والعميق بهدف الكشف عن التعدد والتعقيد الحقيقي للأشياء .

يبدو أن ديولوز يدافع بدلاً من ذلك عن أساليب الكتابة والإبداع التجريبية . وهو ينتقد بشدة الطريقة التي ينظر بها الكثير من الكتاب الأكاديميين إلى وظيفة كتاباتهم المتمثلة في تمثيل العالم . فوفقاً لديولوز (1994؛ 1990) ، فإن التمثيل هو عملية سلبية جوهرياً ، لأن :

(1) محاولة وصف الأشياء بدقة لا مفر منها من إحداث تشويه وتبسيط لها، و

(2) إن البعد النقدي الذي يتطلبه التمثيل الدقيق يجعل من هذا التمثيل بمثابة حكم .

بدلاً من محاولة الوصف أو الحكم ، يؤكد ديولوز **أن الكتابة النقدية أو الفلسفية يجب أن تهدف إلى إضافة قيمة إلى العالم ، وجعله أكثر غنى ، بدلاً من تقليله** . ويتجلى هذا المبدأ التعبيري والإبداعي في بعض الكتابات الجغرافية الحديثة . يدعو ثريف إلى أن يبتكر علماء الجغرافيا "فن التعبير عن الممارسات والمهارات المشتركة التي تشكل الناس والذوات والعالم" (2001: 216) ، بينما يرى ديوزبري وآخرون أن الكتابة الأكاديمية يجب أن تهدف إلى "إثراء التعبير في العالم" (2002: 439) . وكلاهما من أنصار ما يُسمى "نظرية ما بعد التمثيل" .

ومن مبادئ هذا الاتجاه الناشئ أن استيعاب نظرية ما بعد البنوية في علم الجغرافيا كان عاجزاً . فمثلاً ، كان هناك ميل دائم إلى النظر إليها كـ "إضافة" إلى النظريات البنوية والماركسية للسلطة والمجتمع والهوية ؛ يتضح هذا ، على سبيل المثال ، في استمرار تحديد مفهوم "الخطاب" في سياق روايات الهيمنة / المقاومة (ينظر على سبيل المثال: بابل وكيث، 1998). ثانياً، ظهر اتجاه "أيديالي" لاستخدام استراتيجيات مثل تحليل الخطاب والتفكيك ، ضمن منهجية تحوّل الوقائع المادية الحقيقية إلى عالم مجرد من الرموز والنصوص والتمثيلات ، حيث يُفترض أن المعاني الكامنة في هذه الوقائع تكمن في هذا العالم المجرد . أوافق على هذه الانتقادات .

في هذا الفصل ، هدفي هو عرض المبادئ والإجراءات الأساسية لمنهجي ديريدا وفوكو، وتوضيح أهمية استخدامها في البحث الجغرافي الإنساني . في كلا المنهجين ، تم التأكيد على أن التفكير وتحليل الخطاب هما أساليب نقدية تُستخدم في تقييم المؤسسات الاجتماعية والهويات والمعتقدات الثقافية والترتيبات السياسية . ومع ذلك ، أود التأكيد على أنهما منهجيان ما بعد بنويتان ، لأنهما يتجاوزان المفاهيم البنائية التقليدية لطريقة ممارسة السلطة وبناء الهويات . كما حاولت التأكيد على أن التفكير والخطاب هما عملية مستمرة في الواقع العملي . بينما تسعى الجغرافيا النقدية إلى رفع الوعي حول الأيديولوجيات الثقافية والسياسية والاقتصادية ، فإن أحد عواقبها غير المقصودة هو سوء فهم نطاق التفكير وتحليل الخطاب . هذان الأسلوبان ليسا مجرد أدوات "للقراءة" أو تقسيم العالم إلى عمليات وحدث ومعاني داخلية أو خارجية . بل إن التفكير هو عملية تحدث ، والخطاب هو ممارسة يومية . استخدام هذين الأسلوبين لا يقتصر على استخلاص المفاهيم والمعاني الأساسية للنص أو الصورة أو الوضع ، بل يتضمن وصفه وتغييره من خلال تجارب تعبيرية.